سلسلة أمراء النصر والتحرير

عُقبى الدار

الإعداد والإخراج الالكتروني
www.almaaref.org

جمعية المعارف الإسلامية الثقافية
AL - MAAREF ISLAMIC CULTURAL ASSOCIATION

أروع قصص الصامدين

عُقبى الدّار

عُقبى الدّار

جمعية المعارف الإسلامية الثقافية
CULTURAL ISLAMIC AL-MAAREF ASSOCIATION
بيروت، لبنان، حارة حريك، شارع دكاش
تلفاكس: ٠١/٢٧٣٧٦٦
ص.ب: ٥٣/٢٤ - ٣٢٧/٢٥
www.maaref.org Email: info@maaref.org

شبكة المعارف الإسلامية
الإعداد والإخراج الالكتروني
www.almaaref.org

• عنوان المسابقة: أروع قصص الصامدين

• عنوان القصة: عُقبى الدار

• الكاتب: سلوى بو سلمان

• الرعاية: بلدية بعلبك

• المنظم والناشر: جمعية المعارف الإسلامية الثقافية

الطبعة الأولى - تموز - ٢٠٠٨م

عُقبى الدّار

بسم الله الرحمن الرحيم

إهداء

إلى من حفرت على جـدار مدرسة الزّمن درساً أزلياً بالصبر والثبات والعنفوان...

إلــى من غزلـت بأدمعها منديـلاً مسحت به دموع الأطفال والنســاء في غياهب الغربة الحالكة...

إلــى مــن روت بعبـرات المآقـي ظمـأ العطاشى...

إلــى من شمخـت عزيـزةً أبيَّة رغـم هَوْلِ الظلم والألم والهوان...

ورغم الضعف وتكالب الأعداء...

فلقّنـت نسـاء الكـون أبجديّـة الصبـر والصمود والإباء...

إلــى من شهـدت مصــارع العشــرات من الأبطال الصّناديد من فلذات كبدها وإخوتها وأبناء إخوتها وأقاربها.

وشهدت

ومــا صرعــت إرادتهــا وإيمانهــا وعزمها وثباتها النّكبات...

إلى مــن تعلّمت من أخيهــا الحسين عليه السلام قمع الحزن بالحزم فعلّمتنا الحزمَ والعَزم.

إلى رائدتنــا الأولى، بطلــة كربلاء، زينب بنت عليّ بن أبي طالب والزهراء عليهما السلام...

أهدي هذه القصة.

وما هي إلاّ كهديّة النملة إلى سيّدنا سليمان عليه السلام كما قيل فيها:

أهدت سليمانَ يوم العرضِ نملتُه

رجلَ الجرادِ التي قد كان في فيها...

وترنّمت بفصيح القولِ واعتذرت

إن الهدايا على مقدار مهديها...

عُقبى الدّار

جنوبيّتان من وطني

مسحت «مريم» جبينها بطرف كمّها، ونفضت يديها من التراب، وأسندت ظهرها إلى الصخرة ذاتها التي كانت تختبئ خلفها حين كانت تلعب (الغمّيضة) مع الفتيات من قريباتها وجاراتها يوم كانت في الثالثة عشر من العمر، وسرحت ذاكرتها وهام فكرها إلى أيامٍ خَلَتْ، وقالت في سرّها: «اللّه يرحمكِ يا أمّي، كنتِ تقولين: (كل شي خير من بني آدم)... فكم اختبأتُ خلفكِ يا هذه الصّخرة السّمراء؟ وكم استندتُ إليكِ؟ كم سمعتِ رنين ضحكاتنا البريئة الصّادرة من أعماق القلوب؟ وصدى صيحاتنا وألحان مشاكساتنا الطفوليّة السّاذجة؟ وكم رَشَشْنا بعضنا بالمياه فتكسّرت قطراتها على سطحكِ التّرابيّ العتيق؟ إيه يا زمن...! رفيقات الصّبا، سميرة ودلال وفاطمة وماجدة وابتهال و... كلّهن تزوّجن وأصبحن أمّهات وجدّات وبعضهنّ الآن أرملات وواحدة منهنّ سبقتنا إلى دار البقاء، إذ أصيبت برصاصة قنصٍ أثناء الحرب الأهلية فتركت في القلب حسرةً وفي

عُقبى الدّار

العيـن دمعـة وفي الوجـدان ذكرى عزيـزة... أما أنا فقـد طلب يدي العديـد مـن الشبّان، إلا أنني مـا أنِسْتُ لوجه أحدهـم كما آنسُ حين أستنـد إليكِ يا صخـرة الطّفولة! وما ألِفتُ النّظـرَ في عيني أحدهم كما ألفتُ النّظر إلى مصطبتنا ودارنا والدّالية والحقل...! وكنت كلّما فكّـرتُ أنني سوف أترك الدّار انتابتني نوبةٌ من القلق العارم! فالبيت الجنوبـيُ لم يكن ليخلـوَ، كما بيتنا على الأقلّ من بقـرةٍ حلوبٍ وغنمةٍ وعنـزةٍ وبضـعِ دجاجاتٍ وشلعة فـراخ، ناهيك عن القطـط، فقد كنا نعطـف على القطط الشّاردة، نؤويها ونطعمها حتى أصبح لدينا عدداً كبيـراً منها. أمـا ببّغاؤنا فقـد كان حديث القرية، فهو يـردّد التّكبير مـع المؤذن قائـلاً: «اللّه أكبر، العزّة للّه»، كما يـردّ التحية: «السّلام عليكـم» ويسأل الزّائرين مثلنا: كيفك يا حـاجّ؟ كيفِك يا حاجّة؟ وقد حفظ أسماءنا وأصبح واحداً من أفراد العائلة.

كنت كلّما فكّرت في هذا كلّه آثرت البقاءَ في بيتنا وقلت في نفسي: «لن أجدَ في هذه الدنيا بيتاً أكثر دفئاً وحميميةً من هذا البيت».

إلاّ أن الأم التـي كانت أمنيتها في الحيـاة أن تفرح بابنتها وتطمئنّ علـى مستقبلها قبـل وفاتها فقد كانت تقول لـي: «اللّه يرضى عليكِ يا ابنتي، أختكِ «زينب» قَسَتْ عليها الأيام، فقد تحمّلَتْ معي مشقّة الحياة القرويّة الصّعبة، وشاطرتني في تحمّل ألم الفقر ومكافحته، فقد كنتُ أترككـم في عهدتها وأذهب إلى العمل فـي الحقل مع أبيكِ رحمه اللّه مـن الصّباح وحتى العصر، وساعدتني فـي تربيتكم، فنسِيَها الزّمن، واقتنعت بما قسَمَه اللّه لها، أمّا أنتِ فلمَ ترفضين الزواج يا ابنتي؟ ها

هي أختكِ فاطمة قد تزوّجت وأصبحت أمّاً فاطمأننتُ على مستقبلها، أتمنّى أن أفرح بكِ، يكفي أنني أحمل همّ أخيك الوحيد الصّغير».

فقد كان أخي يعاني من بعضِ الضعف في الأعصاب، إلاّ أنني كنت أجيبها باسمة: «لا تقلقي يا أمي، إذا لم أتزوّج فسأبقى مع أختي زينب، نرعى أخانا ونعتني بدارنا وحقلنا وسيبقى بيتكِ مفتوحاً وعامراً بوجودكِ بإذن الله؟». هنا، أفاقت الحاجة «مريم» من شرودها على صوتِ شقيقتها الكبرى الحاجّة «زينب» تسألها: أين صرتِ يا أختي؟ هل شتلتِ البندورات؟ فأجابتها بحنان: إي يا أختي، شتلت البندورة والفليفلة والباذنجان، انشاء الله صيفية مباركة يا ربّ.

- الله يسمع منّك يا أختي.

فالآن أصبحتا حاجّتين بعد أن أدّتا فريضة الحجّ إلى بيت الله الحرام. وقد رعتا أخاهما أفضل رعاية فتحسّنت حالته الصحيّة كثيراً، ثم تزوّج وأقام معهما في منزل والديه،و قامتا بتربية أطفاله ورعايتهم ومساعدته ماديّاً على تعليمهم، ولم يبتعد عنهما إلاّ منذ فترةٍ قصيرةٍ حيث بنى بيتاً صغيراً مستقلاً في نفس القرية، وما زالتا حتى الآن تقدّمان الدّعم المادّي والعاطفي له.

كانت الحاجّة «زينب» تنادي أختها وهي تقف في الجهة الجنوبيّة للدّار حاملةً أنبوب الماء ترشّ النعناع والبقدونس بالرّذاذ البارد، فشمس حزيران بدأت تلسع بأشعتها أوراق المزروعات، بعدها جرّت الأنبوب بكلتا يديها وتوجّهت إلى الجهة الشرقيّة وصوّبت طرفه إلى كعب الشتول التي غرستها شقيقتها قائلة: «يعطيكِ ألف عافية يا أختي».

عُقبى الدّار

كان الحقل أرضَهما وبيتهما وكنز آمالهما، تخدمانه برموش أعينهما، ويخدمهما بعطفه وعرفانه، تجدان فيه سرّ الراحة وعذوبة الطمأنينة، وبراءة الطفولة وسناء الزّهر والطّهر. تتعبان لكنهما تشعران أن بينه وبينهما عهدَ وفاءٍ وعطاء، وكثيراً ما كانتا تقولان: «كل ما في الحياة يخون إلاّ الأرض، تحملنا وتحمينا من غدر الزّمان أحياءً وأمواتاً».

فقد زرعتا هذا الحقل بكل ما يخطر ببال، فالجيران والأقارب ومعظم أهل القرية يشترون منهما البصل والثوم والصّعتر والسّمّاق والسّمسم، والفلفل والباذنجان والكوسى والبندورة والخسّ واللّوبياء وغيرها.. فهما تعيشان من هذه الخيرات، كما تبيعان الحليب واللّبن، وقد نجحتا في هذا المضمار نجاحاً منقطع النظير حتى باتت القرية بكبارها وصغارها تعرفهما وتحبّهما.

هما أنموذج رائع من نساء جنوبنا الصّامد، من ثرى عاملة، غفت عيونهما في المهد على حدوةٍ حزينةٍ كانت تردّدها الأمّ بصوتٍ جنوبيٍّ شجيّ:

يا حادي العيس سلّملي عليهم
وقلّلن يرجعوا كُرَامةً عَليهُمْ

مختصرةً فيها كلّ معاني الإيمان والإخلاص والصبر والولاء والحزن الذي يطبع قلوب المؤمنين، ورضعتا حبّ الزهراء والحسن والحسين عليهم السلام وعشقت آذانهما سماع مجالس العزاء الكربلائيّ، وحفرت في ذاكرتهما وقائع الطفّ الأليمة، فلم تنسيا أبداً مسيرة

السّبايا وصبر زينب ووجع زين العابدين وعطش الأطفال. وكم من سهرة سمر أمضتا أيام الصّبا على السّطَيْحة حين كان البيت يعجّ بالكبار والصِّغار، وكان يستضيف الحاج الوالد كبار الضيعة والقرى المجاورة، فيتسامرون بتبادل أخبار تاريخ المجاهدين أمثال الشهيد الأول والشّهيد الثاني، واعتداءات اليهود والمجازر التي ارتكبوها في حولا وفي فلسطين الجريحة، ممّا أصلَبَ عودَيْهما على التشبّث بالأرض والوطن والمبدأ والعقيدة وكرّس في وجدانهما أن الأرض لله يورثها عباده الصّالحين. كما شهدتا الاعتداءات الإسرائيلية على لبنان وخصوصاً على القرى الجنوبية والحدودية بشكل خاص ثم اجتياح ١٩٧٨ وبعده اجتياح ١٩٨٢، والمعتقلات التي زجّت فيها إسرائيل شبابنا من المقاومين ومن أبناء هذه القرى الصّامدة كمعتقل أنصار ومعتقل الخيام. وكم زغردت قلوبهما فرحاً وزهواً يوم التحرير في أيار العام ٢٠٠٠ فباتوا يُقسمون بشباب المقاومة كما نُقسِمُ عادةً بالأنبياء والأئمة عليهم السلام.

«برج قلاويه»

القرية «برج قلاويه» هي إحدى قرى وسط جنوب لبنان المعروف بجبل عامل قضاء بنت جبيل، تقع في نقطة وسطى تبعد حوالي ٢٠كلم عن صور من جهة الغرب، وعن بنت جبيل من جهة الجنوب وعن النبّطيّة من الشمال وتبعد ٩٠كلم عن بيروت للقادم إليها من السّاحل عبر برج رحّال مروراً بدير قانون النهر فمعروب ثم صريفا. وهي

عُقبى الدّار

تقــع على مرتفع مشرفٍ يحمــي قرية «قلاويه» مــن الجنوب، الواقعة في منحدرٍ يعــرف «بالطباله» ويطلّ من الشرق على وادٍ عميق يفصل بينــه وبين توليــن، وينبع منه نهر الحجيــر (وادي الحجير) وتنبسط السّهــول شمالاً باتجاه الغندوريــة والطّوَيْر، وفــرون، وتنكشف أمامه منطقــة النبطيــة وقراها وصولاً إلــى مرتفعات صافــي، كما ينكشف أفقه الشرقي الشمالي على قرى أعالي جبل عامل وصولاً إلى مشارف حدود فلسطين وجبل الشيخ.

نفوسٌ مطمئنة

ذكرت تفاصيل الموقع بالتحديــد ليدرك القارئ حرج صمود هذه العائلة المؤلفة من هاتين الأختين اللّتين سبق ذكرُهما وأولاد أخيهما الثلاثة (صبيّتين وشــاب كالورود الزاهرة) في منزلٍ قرويٍّ قديم هو عبــارة عــن سطيحة تطلّ على ثــلاثِ غرفٍ كلٌّ منها لهــا بابٌ مستقلٌّ يطــلّ على السّطيحــة، ولا تتّصل هذه الغرف ببعضهــا بأبواب داخليّة بحيث أن من يريد الانتقال من غرفةٍ إلى أخرى عليه إلزاماً أن يخرج إلــى السّطيحة، وهذه الغرف هي عبارة عــن دارٍ لاستقبال الضيوف، وغرفــة للجلوس ومطبخ. هذه الهندســة البسيطــة المتواضعة، التي تحمل طابع الوداعة الرّيفية والأمــن والسّكينة، أضحت أثناء الحرب الهمجيّــة الوحشية مصــدر حرج ومشقة وخطر حقيقــيٍّ أثناء انتقال أفراد العائلة من غرفةٍ إلى أخرى.

مــا لبث حزيران أن لملم أذياله ورفرف تموز ناثراً عبق الذكريات

الحميمة التي بعثت الأمل والنّشاط في البيت الجنوبيّ الوادع، فأعلنت الحاجة مريم رغبتها أمام أختها الحاجّة زينب في التبكير هذا الصّيف في تحضير المؤونة من كشك وبرغل ومربّى ومخلل ولبنة بالزيت، كي يتسنّى لهما استقبال الضيوف والأقارب الذين يفدون إلى القرية من بيروت خلال الصّيف وهما أكثر راحة، فالمسؤولية كبيرة والأعمال كثيرة وجميلٌ أن نكون حكماء في تنظيم أوقاتنا، فما كان من الحاجة زينب إلاّ أن وافقتها الرّأي وشجّعتها.

وهكذا كان، تعاونت الأختان في إنجاز العمل فما مضى أسبوعان إلاّ وكانت تفوح من مطبخ الأختين رائحة خيرات الجنوب، الذي يرجعك عطر شذاه إلى مائدة الجدّة الممدودة على «الطّبلية».

جلست الحاجّة مريم على طرّاحة مزركشة ملقاةٍ على السّطيحة، واضعةً بقربها قفص الببغاء، ليشاركها فرحتها بالراحة بعد العناء، ويؤنسها ويردّد ما تعلّمه من عبارات لطيفة، فيذهب عن قلبها الهمّ والشّجن، وتنهّدت قائلةً: ألف الحمد لله والشكر لله، فردّد البّبغاء قولها بدقّة. ضحكت الحاجّة وأخذت تطعمه حبّات القمح المسلوق بيدها وقالت: غداً، سوف تحرس البيت جيداً، لأننا ذاهبتان أنا والحاجة زينب لزيارة أهل الضيعة والاطمئنان عليهم، فمنذ مدّة لم نَرَهم، كنّا مشغولتين بصنع المؤونة، عليك أن تنتبه جيداً للقطط والدجاجات والصيصان، سوف أعلّق لك القفص مقابل الحظيرة والخمّ كي تتمكن من الإشراف على كل ما يدور حولك، فنقرها بإصبعها كأنه يمازحها أو يعاتبها على تركه وحيداً، فابتسمت وتركته

عُقبى الدّار

ودخلت لتذكّر أختها الحاجّة زينب بموعد الدّواء فهي تعاني من حينٍ لآخر من بعض المشاكل الصّحيّة.

في اليوم التالي، وكان الحادي عشر من تموز الـ٢٠٠٦، حملت الحاجتان بعضاً من هدايا الأرض المعطاء وتوجّهتا نحو بيوت الجيران والأقارب في الضّيعة وشمس تمّوز تحوك خيوطها الذّهبيّة على خطاهما.

اطمأنتا على الجميع، كما سرّ الجميع بزيارتهما، فكلّ الصّبايا والشباب بمثابة أولادهما وكلّ العجائز أهلهما وكلّ الرّجال إخوانهما وكلّ السّيدات أخواتهما، إنها التّربية العامليّة الأصيلة الصّادقة.

عند الغروب، عادتا إلى البيت، توضّأتا وصلّتا المغرب، وأثناء التّسبيح، التفتت الحاجّة مريم إلى أختها وقالت: «لا تنسَيْ يا أختي، إدعي للشّباب، شباب المقاومة».

فرفعت الحاجة زينب يديها إلى السّماء وقالت: «يا ربّ، انصرهم نصراً مبيناً مباركاً بقدرتك يا قادر يا كريم، وافتح لهم فتحاً ما فتحته لأحد مثلهم بحقّ الحجّة المنتظر عجل الله فرجه الشريف. وكأنما تلقّفت الملائكة دعاءها كما تلقّفت السّماء نجيع رضيع الحسين عليه السلام ...!

ففي صباح اليوم التالي، الثاني عشر من تموز، تعالت صيحات التّكبير من كلّ صوب، وتناهت إلى آذانهما بعض الزّغاريد وسمعتا بعض الشباب والناس يتبادلون التّهاني، فالبيت يقع قرب السّاحة مباشرة. وقفتا على السّطيحة ونادتا سائلتين: ما الخبر؟

فقيل لهما أن المقاومة قد أسرت جنديّين صهيونيين، فصرختا

مـن الأعماق: «اللّه أكبر، النّصر للمقاومـة!» وردّد الببّغاء: اللّه أكبر! اللّه أكبـر! وبحركـة عفوية توجّـه المجتمعون فـي السّاحـة إلى بيت الحاجّتين، وراحوا يتبادلون سَرْدَ ما سمعوه وكيفيّة حصوله، ويعبّرون عن فرحتهم بهذه البطولة المميّزة وهذا النَّصر الإلهيّ، ويستعرضون الاحتمالات حول الرّدّ الإسرائيلي المتوقّع.

ودارت الحاجـة مريـم بالصينية الفضيّـة البرّاقة تـوزّع الأكواب اللؤلؤيّـة، فيها شراب الـورد الأرجواني على الأهالـي ونثرت الحاجة زينـب حبّات الملبّـس الملوّن فوق رؤوسهم فصـاروا يتلقّفونه فرحين هانئين، وسرّ الببّغاء بهذا الجمع الطّيّب، وقد تحلّق حول قفصه بعض الأطفال الذيـن كانوا بصحبة أمّهاتهم وأخـذوا يعلّمونه عبارة: «اللّه يهـدّك يا إسرائيـل» فيكرّرها مـرّات ومرّات، بلحـن موسيقيٍّ معيّن، فيبتسـم الجميع مستبشرين،فالحدث حـدث انتصار، انتصار لقرار قائـدٍ شجـاعٍ أعلن أننا قومٌ لا نترك أسرانا فـي السّجون، وأننا سوف نعمـل كل مـا نستطيع لاسترجاع كامل أرضنـا وتحرير كلّ أسرانا من السّجون الإسرائيلية.

البيت الأمريكيّ الأسود

أمّـا في مقلب آخر مـن الأرض، هناك بيتٌ أسـود، يسمونه البيت الأبيض، تعشّش بين جنباته عناكب الحقد والإجرام والرّذيلة، تحاك في صالاته مؤامـرات القتل والسّلب والنّهب، يتردّد عليه رجال ونساء نواب ووزراء، يتكلمون عـن الديمقراطية ويطبقونها مع الكلاب لا مع

البشـر، يديـره شيطانٌ حين تسمـع اسمه تشعر أن حـرف الشين قد صبغه بالشؤم والشّناعة والشّر.

كان هذا الشيطان قد دبّر مع أذنابه مؤامرة للهجوم على لبنان بهدف القضاء على المقاومة قضاءً نهائياً، فالقرار ١٥٥٩ الذي كان ينصّ على سحب سلاحها لم يطبّق، ولن يستطيع تطبيقه، لذا قرّر الهجوم العسكريّ من خلال الإسرائيلي للقضاء على قيادة هذه المقاومة وعناصرها وجمهورها، وكان قد حدّد أواخر أيلول أو أوائل تشرين موعداً لهذا الهجوم. إلا أن العناية الإلهية مكّنت المقاومين من أسْرِ الجنديين في النصف الأول من تموز، ممّا اضطرّه لتقديم موعد هجومه مدَّعياً الرّد على عملية الأسر، إلاّ أن جمهور المقاومة الصّامد والواعي لم يخفَ عليه منذ اليوم الثاني للعدوان، أن هذا العدوان بكل همجيته ودمويته واستهدافاته التدميرية للبنى التحتية وللبشر والمؤسّسات ليس ردّاً على عملية الأسر، خاصّة بعد أن أعلنت كونداليزا رايس وزيرة الخارجية الأميركية في اليوم الثالث للعدوان أنّ هذه الحرب هي بدء المخاض العسير لولادة شرق أوسط جديد.

هكـذا بدأت إسرائيـل عدوانها ظهر يوم الأربعـاء في الثاني عشر مـن تموز بغـارات وحشية برّاً وبحراً وجوّاً فمـا انقضى ذاك اليوم إلاّ عـن سقوط أكثر من أربعين شهيداً وعشرات الجرحى وتدمير معظم جسـور منطقة الجنـوب اللبناني، وأخـذت القرى الجنوبيّـة تتعرّض لقصفٍ همجيّ على المنازل الآمنة وبدأت أجساد الأطفال تتمزّق أمام أعيـن الأهالي، وقامت قوات الاحتلال منذ فجر يوم الخميس بسلسلة

مجازر بشعة راح ضحيتها عائلات مؤمنة، نهضت لتأدية الصلاة، فإذا بها تصعد إلى بارئها، بَكَتْها ملائكة السّماء وتَشَارَكَ القمرُ قبل أفوله والشمس قبل بزوغها على إقامة عزائِها، وأدّت عصافير الجنة مراسم استقبالها على ألحان ترانيم الخلود هاتفةً هلّموا إلى الاستقبال فها قد وصل السّابقون السّابقون.

وتابعت الغارات الصّهيونية عدوانها على كلّ المناطق دون استثناء، وأخذت البوارج الحربيّة تقصف مطار بيروت الدّولي وضاحية بيروت الجنوبية وأكملت وصولاً إلى البقاع اللبناني فوزّعت عدوانها ليترافق الأبرياء في ترحالهم إلى الملكوت من كلّ حدبٍ وصوب تاركين بقايا نجيعٍ نازفٍ هنا وهناك، يستجدي دموع المحبيّن وآهاتهم ويصرخ في وجوه الأذلاّء والخانعين صرخاتٍ يرنّ صداها في رؤوسهم الفارغة. وبدأ سكان القرى بالنزوح إلى أماكن أقلّ استهدافاً، وكان نزوح سكان القرية من أشدّ الأنباء المحزنة على قلبيِ الحاجّتين المؤمنتين، فانطلقتا إلى بيوت أهل القرية، تشدّان من أزر الناس، وتهدّئان من رَوْعِ الخائفين، وتؤمّلان اليائسين بنصر المقاومة المحتوم بإذن الله وبخزي المعتدين، فالباطل حتماً إلى زوال، وذلك دون أن تأبها لطائرات الاستطلاع ولا للغارات الوهميّة ولا للقصف الهمجيّ، فسلاحهما الإيمان بأنه لا يصيبنا إلا ما كتب الله لنا، وأن الله سوف يحفظ دينه سواء مِتْنا أو حَيينا.

تحوّلت اللّيلة الثالثة للعدوان إلى ليلةٍ مجنونة، مستَعِرَة، حيث أن كلّ الجنوب من أقصاه إلى أقصاه قد تعرّض لقصفٍ عنيفٍ مدمّر

عُقبى الدّار

من أسلحة الجوّ والبحر والبرّ الصهيونية، واستمرّت الغارات تتواصل حتى شملت كلّ لبنان من جنوبه إلى شماله إلى ضاحية بيروت الجنوبية، إلى بقاعه موقعةً المئات من الجرحى والشهداء، ومرتكبةً المجازر المروّعة كمجزرة مروحين، مجزرة شمع، مجزرة بافليه، مجزرة ياطر، مجزرة الدّوير، مجزرة زبقين، مجزرة شحور، ومجزرة صريفا. وكانت الحاجّتان تستمعان إلى الأخبار وتصلهما هذه الأنباء من المذياع الصغير الذي يعمل على البطاريات، فيواجهانها برباطة جأش وشجاعة دون أدنى خوفٍ أو وجل، وكانتا تضعان نَصْبَ أعينهما عدم الخوف والتسلّح بالإيمان والصبّر والاتكال على الله وترديد الآيات القرآنية والأدعية التي تحفظ الإنسان من كيد الأعداء. في تلك الليلة، وعند الساعة التاسعة مساءً، وأثناء إلقاء سماحة السيد حسن نصر الله كلمته، كانت القوة الصّاروخية في المقاومة الباسلة تدكّ سفينة صواريخ العدوّ (ساعر ٥) في عرض البحر قبالة مدينة بيروت فتشعل فيها حريقاً هائلاً وتصيبها بأضرار بالغة وتوقع فيها إصابات بين قتلى وغرقى. إزاء هذا التسديد المبارك، ارتفعت معنويات جمهور المقاومة، وبدأت الحاجّتان تذرفان دموع الخشوع لله عزّ وجلّ، تأثراً برأفته سبحانه وتعالى بعباده المؤمنين المستضعفين، وإمدادهم بالنّصر والغلبة وتكبّران بأعلى الأصوات، فيردّد الببّغاء تكبيرهم، فتلقنه الحاجة مريم الدّعاء: (اللّهم انصر شباب المقاومة) فيكررّه مثلها تماماً بصوته الحادّ، فتستبشر الحاجة مريم خيراً وتتوجّه إلى أختها بالقول: سوف ننتصر بإذن الله بدعاء هذا الطائر الضعيف.

وهكـذا استمـرّ العـدوان حتى كان اليـوم الخامس، حيـث أغارت طائـرات العدوّ علـى القرية مستهدفةً مبنى مؤلفـاً من ثلاثِ طبقات لا يبعـد عن بيت الحاجّتين سوى بضعة أمتار، فسوّته بالأرض وجعلته كالرّميـم. اهتزت القريـة بكاملها، وتطايرت الشظايـا والأحجار في كل جانـب وتناثر الزجاج فـي البيوت المجاورة كمـا تصدّعت بعض جدرانهـا، كذلك بيت الحاجّتين اللّتين لاذتـا بالزوايا بحركة تلقائية لعـلّ الزوايا تكون أكثر أمناً، فبناء البيـت قديم، وما من ملجأ، وهما تصرخـان: «اللّه أكبـر، يـا صاحب الزمـان أدركنـا». فيعيدهما إلى ثباتهما صوت الببغاء مـردّداً نداءهما: «اللّه أكبر، يا صاحب الزمان أدركنـا»، فتشعران أنهما تستمـدّان القوة من هـذا الطائر الصغير. ثـم انطلقتا بعـد برهة لتكنيس الزجـاج والأحجـار والشظايا، وتفقّد الحيوانات والاطمئنان على سلامتها.

في عصر هـذا اليوم الرّهيب، كانت قرية «برج قلاويه» قد فرغت مـن ٩٩٪ مـن سكانها، ما خـلا الأسود البواسل من شبـاب المقاومة المدافعيـن، المنزرعيـن فـي كلّ شبرٍ مـن الأرض، وخلـف جذعِ كلّ شجـرة، ووراء كلّ صخرة، يسطرون ملاحـم العزّ والإباء، فيحطمّون كبرياءً أعتى عدوٍّ عرفه التاريخ.

كغيـره من أهالي القرية، وصل أخوهما وعائلته وقد أحضر سيارة نقـل (باص) ليصحبهما معه نزوحاً نحو بيروت، لأن القرية أصبحت معزولـة، لا مـاء ولا كهرباء، فقد دمّـرت مصادر الميـاه ومضخّاتها ومحطـات التوتـر العالـي للكهربـاء، وأعمدتهـا وأبراجهـا، وبـدأوا يستهدفون المباني السّكنية في القرية.

عُقبى الدّار

إلا أن الحاجتين رفضتا تَرْكَ الدار وأجابتاه قائلتين: «أنت مريض يـا أخـي، ولا يمكنك البقاء تحت رحمة هذا القصـف، ابتعد أنت عن الخطـر، فأختنا فاطمة في بيروت تكون شديـدة القلق الآن والأقارب كُثُر والحمد لله، ابتعد عن الخطر، وَدَعْنا هنا يا أخي، في البيت الذي وُلِدْنـا فيه، في الأرض التـي درجنا عليها، في القريـة التي تعوّدنا أن نتنفّس هواءها.

لن نترك الدار يا أخي مهما حصل، لن نترك بيتنا وداليتنا والحقل، لن نهرب ونترك الشباب يدافعون عن القرية وحيدين فريدين، علينا أن نفتـح لهم الـدار علّهم يحتاجون لأية مساعـدة، وإذا انتهى عمرنا وجاء أجلنا فسوف نموت في بيتنا. ثم إن هذه الحيوانات التي أمضينا العمر نتغذّى من لبنها وخيرها، وهي مصدر رزقنا ومعيشتنا، أنتركها تمـوت جوعاً وعطشاً؟ أهكذا ردّ الجميـل؟ لا، لن نهرب من إسرائيل، نحن لا نخاف من إسرائيل أبداً.

تأثّر أولاد الأخ بكلام عمّتيهـم، صبيّتان وشاب كأزهار الياسمين، لـم ينسوا أنهم هم أيضاً درجوا على هذه الأرض، وأن هاتين العمّتين تعبتا كثيراً من أجل أبيهم، ثم من أجلهم حتى كبروا وتعلّموا وأصبحوا طلاّباً في الجامعات، لذا لن يتركوهما وحيدتين.

أخـذت دموعهم تنهمر على خدودهم وترجّلـوا من الباص وقالوا: «سـوف نبقى مـع عمّتينا». تعانـق الجميع، وتدحرجت دمـوع الوداع، ولَعَنَتِ الملائكةُ كلَّ طاغٍ وباغٍ على وجه الأرض.

ثم زوّدت الأختان المغادرين بما تيسّر من خبزٍ وخضارٍ وثمار، كما

زوّدتهم بالدعاء والتضرّع إلى الله عزّ وجلّ كي يوصلهم بأمان. فقد كانت الطائرات الإسرائيلية تلاحق سيارات المدنيّين النّازحين هروباً من جحيم الصّواريخ والقذائف التي كانت تمزّق الأجساد بوحشية، كما تلاحق سيارات الصليب الأحمر اللبناني والهيئات الصّحية في كشافة الرسالة الإسلامية. دخلوا الدّار والأسى يعتصر القلوب، فوداع الأخ والأب في هذا اليوم المخيف قاسٍ ومؤلم، ولا أحد يعلم غير الله إن كان هناك لقاءٌ بعد هذا الوداع، فربّما بين لحظة وأخرى يكون أحد الباقين أو جميعهم طعمةً لقصف الأعداء، أو ربّما يطال القصف السّيارة التي تقلّ النازحين هرباً من الغارات المجنونة.

سكينة القلوب

ما أودّ أن أنقله إليك يا قارئي الكريم، أنك أمام عائلة، ولو لم تكن لتتقن التكلّم أو القراءة بأكثر من لغة، ولم تلمّ بأطراف الحضارة من مختلف أركانها، إلا أنها تجيد لغةً واحدةً هي لغة الإيمان والصّبر والصدق والإباء، فكنت تجدهم وخلال هذا الأسبوع الأوّل في أوج قوّتهم وصمودهم وتحدّيهم لكل القصف الجهنميّ، يهزأون بقدرة إسرائيل، ويردّدون باستمرار بأنها حتى ولو أبادتنا جميعاً فإنها لن تنتصر، بل سيبقى هناك وبقدرة الله جلّ وعلا من يصرخ بوجهها الله أكبر، الموت لإسرائيل.

وكانوا يمضون اللّيالي بطولها فارّين من زاوية إلى زاوية في أنحاء الغرفة، التي كانوا يجتمعون فيها سويّاً.

عُقبى الدّار

وإذا طلع الصّباح فالمسؤولية كبيرة، عليهم إطعام الحيوانات، وحَلْبِ اللّبونة منها وجمع الدجّاجات والفراخ لإطعامها، وكم من مرّةٍ كانت تبكي الحاجة مريم وتقول: «ترى، هل تموت هذه الفراخ بشظايا الأعداء وأبقى أنا فيحترق قلبي عليها؟...!!

إضافة إلى إطعام الببّغاء والقطط ونشل الماء من البئر بالطريقة التقليديّة القديمة (أي بواسطة الدّلو المعلّق بالحبل)، وسَقْي كل هذه المخلوقات لئلاّ تموت عطشاً، وتحضير الطعام في المنزل، لأن أولاد الأخ بالنسبة للعمّات أمانةً في أعناقهما. هذه الأعمال اليومية التي كانت حتى الأمس القريب مصدر متعة وتسلية وراحة نفسية ومصدر رزق مقدسٍ، أضحت في ظلّ هذا العدوان الغاشم عبئاً ثقيلاً ومن أثقل الأعمال وأكثرها صعوبة ومشقة، فكم من مرّةٍ كانت تستمرّ عملية حلب البقرة ساعتين ونصف بين هروبٍ من هذه الجهة ولجوءٍ إلى تلك، ثم هروبٍ من تلك ولجوءٍ إلى الأولى، كما كان عليهما أن تغليا الحليب وتصنعا منه إمّا الجبن فتحفظانه بالملح كي لا يفسد، وإما اللّبنة فتكبسانها بالزيت خوفاً عليها من الفساد، فما عاد هناك من يشتري الحليب، فأهل القرية قد نزحوا إلاّ النادر منهم، المختبئ الذي لا يجرؤ على التظاهر مطلقاً.

أما الأرض، فقد قالت الحاجّتان: «منذ ولدنا وحتى اليوم، لم تعطِ هذه الأرض بالكَرَم الذي أعطت به أثناء الحرب»...! فما أدري، أيّ سرٍّ، أيُّ لغز قد انطوى في قلبها؟ ألأنها الأمّ التي تحنو على أبنائها؟ ألأنها الأم التي تبكي لوعة وحسرةً على فلذات كبدها؟ ألأنها الأم التي تعطي وتعطي دون حساب؟

أم لأنهـا ارتوت وارتـوت حتى ثملـت بالأحمر القانـي؟ وتباركت حتـى طهـرت بأقدام رجـالٍ عرفـوا الله وأحبّوه فأحبّهـم وسدّدهم ونصرهـم.

هذه الأرض تضاعف عطاؤها حتى أصبحـت شتلة البندورة التي كانـت تحمـل عشرين رأسـاً صارت تحمـل أكثر مـن خمسين وهكذا حملـت الخضار والفواكه والثمـار حتى ما عادوا يعرفون ماذا يفعلون بكلّ هذا الخير؟ مع العلم أنها لم تعد ترتوي كالسّابق.

فكانوا يذكرون النّاس ويتحسّرون على صيف القرية حين كانت تعجّ بأهاليهـا وترفل بثوب العـزّ والخير والجمال. لـذا اضطرّت الحاجّتان إلى تجفيف ما يؤكل مجففـاً، وإلى عصرِ البندورة وتصنيعها. كلّ هذا وطائرات العدوّ تظللّهما، وقصفه الغادر ينهمر على القرية من كلّ الجهات كالرّعد المزمجر، ممّا يجبرهما عشرات بل مئات المرّات على الهرب والاختباء تحت ظـلال الأشجار حتى يتوقف سيـل القنابل والصّواريخ للحظة فتستأنفان العمل من جديد بصبرٍ واحتسابٍ وشجاعة.

أما الشاب المؤمن، «شادي» الذي نشأ في كنفِ العمتين المؤمنتين، فتربّـى على التواضع والإيمان والحشمة والأخلاق فقد كان يطلب إلى أختيـه البقاء داخل الـدّار لعلّ جدرانه تكون لهما ملجـأً من الشظايا التـي كانت تتناثر بيـن الحين والآخر فـي الأنحاء كمـا تتناثر أوراق الخريـف الصفراء عند هبوب الرّيح، ويبقى هـو بالقرب من عمّتيه، يحوم حولهما كالطائر الذي يحلّق لكنه لا يبتعد عن مملكته. ولأن من يتوكّل على الله فالله حسبه ونعم الوكيل، فإنه عزّ وجلّ لم يترك تينك

عُقبى الدّار

الحاجتيـن وأولاد أخيهما، بـل كان يكلؤهما بعنايتـه ورعايته، وأنزل سكينتـه على قلوبهم بالرغم من الإرهـاق والضّعف الذي بان واضحاً على وجوههم وعيونهم.

كان الأولاد يقـرأون القرآن الكريم والدّعاء وخاصة دعاء الجوشن الصّغيـر لحمايـة شبـاب المقاومة وردّ كيـد الأعداء إلـى نحورهم. والعمّتـان تصلّيـان وتدعـوان للنّاس بالحفـظ والأمـان، وللشهداء بالسّعـادة والرّضـوان وللجرحـى بالشفـاء التـام وتخفيـف الآلام، وللمقاومين بالحماية والنّصرة والعزّة.

أمـا أنصار الله، العيـن السّاهرة على الوطن وعلـى الأرض وعلى النـاس، الذيـن لم تكـن تخفى عليهـم لا شـاردة ولا واردة من أخبار أهالـي القرى فلطالما عرفوا بمـن سادوا ومن بادوا، ومن رحلوا ومن صمدوا ومن أخلصوا ومن خانوا...!

شبـاب القريـة البارّون، كانوا يَـرَوْن ويشعرون أن بيـت الحاجّتين ما يـزال عامراً ولم يخلُ مـن ساكنيه، لذا أرسلـوا أحدهم لتفقدهم والاطمئنان على سلامتهم وطَمْأنتهم إلى وجود الشباب بقربهم، هذا والقصف على أشدّه باتجاه الضيعة كما باتجاه كلّ القرى المجاورة.

وصـل إلى الدّار، سلّم علـى أهلها، رحبّوا بقدومـه، فرحوا برؤيته فرحاً عارماً، عرّفهـم بنفسه، إنه ابن الضّيعة، حدّقوا به جيّداً، إنهم يعرفـون كلّ أبناء الضيعة، لكنهم لم يعرفوه؟ كيف يعرفونه وقد غطّى التراب معالم وجهه، والعينان شديدتا الاحمرار من قلّة النّوم.

رحّبوا به من صميم القلوب، سألوه عن الشبّاب: «ماذا تحتاجون؟

نحن بخدمتكم، قلوبنا لكم، أرواحنا فداء لعيونكم» لم يتركوا له مجالاً ليسألهم عن حالهم، بل قالوا: « نحن نريد الاطمئنان عليكم، نحن في بيتنا لا ينقصنا شيء، إنما أنتم الذين هجرتم البيوت للدفاع عنّا، اطلبوا ما شئتم، ماذا نفعل كي نكافئكم؟ أنتم تحمون القرية والوطن وتدافعون عن الناس» ثم توسّلت إليه العمّة أن يجلس قليلاً، وأحضرت كيساً وضعت فيه الخبز والطعام والخضار، وقدّمته إليه قائلةً: «دلني على مكانكم كي أذهب يومياً وأرسل لكم ما تحتاجونه من خبز وطعام وخضار» فشكرها ووعدها بالحضور بنفسه أو بحضور أحد رفاقه كلّما سنحت لهم الفرصة. ثم طلب منهم الدّعاء وانصرف. ودّعوه والدموع تنهمر على الوجنات تأثراً لحال هؤلاء المقاومين المضحّين الذين أرخصوا دماءهم وأرواحهم للذّود عن التراب والأهل والدين والوطن...!

منذ ذلك اليوم، صارت الحاجّة «مريم» تهيّئ البيض المسلوق والطعام والخبز والخضار وكل ما يتوفّر عندها حتى يأتي أحد الشباب للاطمئنان عليهم فتحمّله ما هيأته لهم. وأصبح كل أفراد العائلة يقلقون إذا تأخر الشباب بالمجيء، وكم تحسَّر شادي وقضى السّاعات الطّوال جالساً في أحد أركان الغرفة سارحاً حزيناً لأنه لم يتدرّب على حمل السّلاح متمنياً الالتحاق بصفوفهم فكانت عمته تطيّب خاطره وتذكّره بحالة والده الصّحّية وبأخواته الفتيات اللّواتي لا سند لهنّ غيره. هكذا كانت تمرّ الأيام طويلةً مليئة بالمواجهات البطولية من قبل شباب المقاومة الذين سطّروا الملاحم الأسطوريّة

عُقبى الدّار

بوجه عدوّ زوّدتْه أمريكا بشتى أنواع الأسلحة المدمّرة، مكبّدينه الخسائر، محطّمين كبرياءه، مزلزلين الأرض تحت قدميه، حتى راح يصرخ ويستنجد، فزوّده الشيطان الأكبر بالقنابل الذكيّة التي كان يقذفها على الأطفال والنساء والعزّل من الناس كما على القرى والبيوت والسّيارات علّه بذلك يجعل النّاس تنقِمُ على المقاومة وتتخلّى عنها.

إلاّ أنّ جمهور المقاومة المؤمن الصّابر المحتسب الصّامد، فإيمانه بالمقاومة ينبع من إيمانه الثابت، الراسخ، المتأصّل بالله وبالأرض وبالوطن وبالحق. إنه خرّيجُ المدرسة الحسينية الزينبيّة الكربلائية، لذا، ما زادته وحشية العدوِّ، والآلام وإراقة الدّماء وارتكاب المجازر إلاّ اصراراً وتصميماً على دعم المقاومة وتقديم الأرواح والممتلكات فداءً لها، فما هي إلاّ فلذات الأكباد، والإخوة والأزواج والآباء.

كرامُ بَرَرَةْ

مع بداية هذا الأسبوع، قام العدوّ الإسرائيلي بهجوم بريٍّ باتجاه بنت جبيل، على محور مارون الراس- بنت جبيل، وقد ترافق هذا الهجوم مع قصفٍ مدفعيٍّ عنيفٍ طاول كل قرى بنت جبيل من دون استثناء، فقامت المقاومة بصدّهم ببسالة قاصفةً العدوّ قصفاً ضارياً شيّبَ رؤوسهم ودَحَرَهم وكبّدهم الخسائر بالأرواح والدّبابات، ومرّغ أنوفهم بالوحل فتقهقروا خائبين مكسورين مذلولين.

إلا أن العدوّ الجبان، وللانتقام والثأر لهزيمته من المقاومة، راح يمطر جمهورها وناسها الطّيبين وقراها الصّامدة بغاراته الهمجيّة

وقنابلـه العنقوديّة والانشطاريّة فتحوّلها إلى براكين منفجرة، تقذف الحمـم في كل مكان وتردم النساء والأطفـال تحت ركام منازلهم ولا مـن مغيـث، فالجسور قد دمّـرت والقرى قد عزلت تمامـاً والمعارك البريّـة على أشدّها، يستخدِمُ فيها العـدوّ القصف المدفعيّ المركّز، تسانـده الطائـرات والبوارج فـوق كل قرى المواجهـات، فباتت قرية «برج قلاويه» كما كل قرى بنت جبيل خصوصاً في فم التّنّين.

وفـي أحد صباحـات هذه الأيـام الملتهبـة، كانت العائلـة تحاول سدّ رمقهـا ببضع لقيماتٍ لتقوى على تحمّل ثقـل الاضطراب والتوتّر والهلـع، وكانـوا قـد وضعوا طعامـاً للقطط فـي إحدى نواحـي الدّار كالعـادة. فالحاجّتان كانتا تحرصـان على وضع وعاء خاصٍّ لكلّ قطّة على حدة، كي لا تصيب إحداها نصيباً أكثر أو أقلّ من غيرها إن هي أكلت في وعاء واحـد. وإذا بالقصف يعنف، والمنزل يهتزّ من أركانه وكأنه الزّلـزال، واشتعلت الأجواء، تركوا الطعام وتفرّقوا في الزوايا، وإذا بالقطط تترك الطعام وتسـرع نحو الحاجتين فتحتمي بهما كما يحتمي الأطفال بحضن أمّهاتهم.

ازدادت المواجهـات البرّية عنفاً، فالضّغـط كبيرٌ على الصّهاينة، والمفاجأة بصمود المقاومة مذهلةٌ للعالم كلّه، والهزيمة تعني الكثير مـن الحسابات التي لم تكـن بالحسبان بالنسبة لأمريـكا وإسرائيل. كان الشباب يمطـرون العدوّ بصواريخهم المباركة، فاشتدّت زمجرة الأسلحـة حتى بـات مجـرّد سماعها كفيـلاً بإصابـة الإنسـان بتلفِ

عُقبى الدّار

الأعصاب واليأس والانهيار. وكان قد مضى على الشباب بضعة أيام لم يطلّوا خلالها على عائلتنا الصّامدة تلك.

من جهتهم، أفراد هذا البيت المؤمن الصّامد كانوا يتجلّدون، ولا يفكّرون بأنفسهم كما يفكّرون بالشباب المقاومين الذين هم في وضعٍ أشدّ حرجاً وأكثر خطورة. في هذه الأثناء، أقبل أحد الشباب وقال إنّ الإخوة بحاجة إلى بعض الخبز.

بلمح البصر، أفرغت الحاجّة مريم كلّ ما لديهم من الخبز في أحد الأكياس وأتبعته بكل ما تمكنت من الأطعمة والخضار وغيره ووعدته بأن تخبز لهم حالاً كلّ الطحين الموجود في المنزل.

فأجابها الشاب بأنه سوف يؤمّن ورفاقه لهم الطّحين، كي يقوموا هم بصنع الخبز بدورهم.

وهكذا، فقد كانت الحاجّتان تحضّران العجين عند العصر من كل يوم، وتقومان عند الفجر بتقريص العجين، لتبدآ مع طلوع الصّباح بخَبْزه. معروفٌ أن عمليّة العجن تحتاج إلى الماء، والعجن بهذه الكميَّة الكبيرة يحتاج إلى ماء كثير (كلّ يوم، يتم عجن كيس كامل من الطّحين) والماء غير متوفّر إلاّ في البئر. كان شادي يقوم بنشل الماء والقصف يزنّر الضّيعة من كلّ الجهات وطائرات الاستطلاع المزوّدة بالصّواريخ لا تغادر سماء القرية ولا للحظة واحدة.

العائلة بأكملها كانت تشارك في عملية صنع الخبز للمقاومين: من رقٍّ للعجين، إلى إكمال تصميم الرغيف، إلى جمع الحطب والأغصان اليابسة، إلى إشعال النار، إلى إنضاج الخبز.

ومـن البديهيّ أن تتم هذه العملية تحـت مظلة القصف الهستيريّ بأسلـوب الكـرّ والفرّ، لذا فقـد كانت تدوم أكثر من ثلثـي النهار. من نهـارات تمّـوز وآب الطويلـة السّاعات. وكثيـراً ما كانـوا يتراكضون تاركيـن العمل للحظات والعـودة من جديد، وكثيراً مـا كانوا يخالون أنفسهم يطيرون في الهواء ثم يحطون على الأرض من ضغط القنابل والصّواريـخ التي كانت تهدّ الأرض هـدّاً عنيفاً، وكم من مرّةٍ سقطت قذيفـة أو صـاروخ على مقربة مـن المكان فغطاهـم الدخان وحجب رؤيـة بعضهم عن بعضهم الآخر، فراحـوا يتصارخون ويتنادَوْن حتى تنجلـي الغبرة فيلتقون مـن جديد ويتفقدّون أجسـاد بعضهم البعض خوفـاً من أيّة إصابة ويحمدون الله على نعمته ومنّه عليهم بالسّلامة. وأكثر ما كان يحزنهم ويملأ قلوبهم لوعةً وحسرةً وأسى أصوات انهيار البيـوت وهي تتهـدّم، فتتهادى جدرانهـا ويتحطّم زجاجهـا فيتطاير الـرّكام والحصـى فـي كلّ الجوانب. كانـوا يكملـون جهادهم بصنع الخبـز للمقاومين وهم يمطرون الصّهاينـة بأدعية الاندحار والفشل والهزيمـة والانكسـار، ويدعـون للمقاوميـن بالنَّصر الإلهـي المؤزّر والحمايـة والحفظ والصّون، وكانوا عندما يذكـرون شباب المقاومة يبكـون ويذرفون الدمـوع وهم يعملون متسائليـن: - هل نفيهم حقّهم؟ وهل نردّ لهم جميلهم إذا صنعنا لهم لقمة الخبز؟ يا ليتنا نستطيع ردّ الأذى عنهم بأهداب عيوننا...

آه... صدقتَ يا أميـر الرّكب، صدقتَ يا صاحب العمّة السّوداء... صدقتَ يا أميناً على الدّم والسّيف وعلى الدّين وعلى الوطن... صدقتَ

عُقبى الدّار

حيـن خاطبتهم بقولك: يا أشرف النّاس ويا أكـرم النّاس... إيه أيها الصّامدون المجاهدون الجهاد الأقدس والأوفى والأبَرّ والأكرم...

إيه... لقد نضب مدادي وبَكُمَ يراعي وتسمّر قلمي بين أناملي...

ما عدت أفقهُ ما أقول... أيّهما أشدّ إخلاصاً ووفاءً؟ المقاومة؟ أم جمهور المقاومة؟ أم انّ هذا التّبَرُ من ذاك الطيّن؟...

فلْتهنأ روحك يا أبا ذرّ الغفاري... فشيعتك يؤدّون الأمانة ويحفظون الوصيّة ويدافعون عن النّهـج الحقّ، هم الأوفياء، لقد حاكوا بوفائهم وفـاء أصحاب الحسين عليه السلام فـي كربلاء... آهٍ يا أبا ذرّ، لو حضرتَ ساعـةً واحدةً في تمـوز وآب الـ٢٠٠٦ إلى قرى عاملـة، إلى قرى بنت جبيل، فوالله لبشّرت أهلها بالجنّة.

ما وهنـتِ العزيمة أبداً، وما أخذ الخوف من قلوبهم أبداً، وما نال الحصار من إيمانهم وثباتهم وإخلاصهم أبداً...

ومـا زادتهـم المجـازر التي كانـت تُرتكَـبُ كلّ يـوم وكلّ ساعة إلا احتضاناً للمقاومين وتفانياً في محاولة تقديم ولو الشيء اليسير.

ظلّـوا ثابتين على العهد بالرغم من وحشيّة العدوان، فكانت نيران آليّته العسكريّة تهـزّ أركان المنزل القرويّ البسيط مئات المرّات في اليوم الواحد، وهم بإصرارٍ يصنعون العجين ويوقدون النّار ويصنعون الخبز، ويقطفون الثمار والخضار ويحضّرون بعض الطّعام، ويقدّمون هذه الأشيـاء للمقاومين وعيونهم خجلى وقلوبهـم وضمائرهم تشعر بالذّنـب والتقصير فكانـوا دوماً يحدّثون بعضهم بـأن هؤلاء الشباب يواجهـون العـدوّ لأجلنا، ويتساقطـون على الأرض شهـداء وجرحى،

ويجوعـون ويعطشون، ويتركون بيوتهم الآمنـة، ويتسابقون إلى الموت لأجلنا، فماذا عسانا نفعل لأجلهم؟ ونحن لا حول لنا ولا قوّة...

يـا ربّ، نحـن لا نملـك إلا الدّعاء، أمـام هذا الواقـع، حملت أيام هـذا الأسبوع معها الكثير الكثير مـن العناء والجهاد والسّهر، وتحمّل المشقّات، وزاد استهداف القرية حتى لم يبقَ بيتٌ من البيوت المجاورة إلا وأصيب بصاروخ أو قذيفة أو قنبلة أو أكثر، ولم تكن لتمرَّ ساعةٌ إلاّ وكانـوا يقفزون فيها من ناحية إلى ناحية بحثـاً عن مأمَنٍ من شظايا القنابل والقذائـف، إلى أن شحبت الوجوه واغبـرّت النظرات وجفّت الشّفاه ووهنت القوى. لكـنّ الإرادات والعزائم كانت بحول الله وقوّته صامـدة، صابرة، قويّة، ثابتـة، راسخة، لا تليـن ولا تستسلم، وكانت كلمة (الله أكبر، المـوت لإسرائيل وأميركا) تتردّد في اليوم عشرات المـرّات، حتـى صار الببّغـاء يردّدها كلّما اهتزّ بـه القفص من شدة القصف...! هـذا الأسبوع شهد جنون العدوّ الإسرائيلي إزاء انكساره وفشله وخـذلان حساباته بالقضاء على المقاومـة ويقينه بأنه أسقط نفسه أو أُسقِطَ في مستنقع الوحول اللّبنانية، فحاول تغطية هذا الفشل وهذه الهزيمة النّكراء بزيـادة عدد مجازره وجرائمه، فأنشب أظافر همجيته حتى العظم، فكنت ترى الغـارات الجويّة المجنونة، وقصف البوارج الهستيريّ، والقصف المدفعيّ الضّاري بهدف التقدّم البرّي، بالإضافة إلى طائرات الاستطلاع المزوّدة بالصّواريخ الحارقة، التي كانـت ترصد تحرّكات المواطنين وتصطادهـم كالعصافير، وفاحَتْ

عُقبى الدّار

رائحة الموت بامتياز. إلا أن أبطال قصّتي هذه، كانوا يتجلببون بالاطمئنان النفسي والهدوء الرّوحي والإيمان العميق.

بالإضافة إلى أن الشباب قد طلبوا إليهم عدم إنارة أيّ ضوءٍ من المنزل بتاتاً أثناء الليل، فالعدوّ جاهز لارتكاب أبشع المجازر فوراً وفي أية لحظة، لذا فقد كانوا يعانون كثيراً من صعوبة هذا الأمر، إذ كانوا يتحرّكون في المنزل عن طريق اللّمس، وغالباً ما كانوا يتجمّعون كلّهم في زاوية واحدة ويحتضنون بعضهم، خوفاً من إصابة أحدهم دون أن يشعر به الآخرون.

في إحدى ليالي ذاك الأسبوع الرّهيب، وعند السّاعة الحادية عشر والنصف تحديداً، التهبت القرية، وكانت القذائف والصّواريخ تضيء غرف المنزل، فيفزع أولاد الأخ من جهة إلى أخرى وشظايا القذائف الانشطارية والقنابل الذكيّة تتناثر حول جدران البيت، فاخترقت إحداها خزانة الملابس في الغرفة ذاتها التي يحتمون داخلها، لكن أحداً لم يعلم ولم يشعر بها في خضمّ هذا الانهمار الغزير لهذا السّيل من القذائف والشظايا.

وبدأت الثياب تحترق وتحترق داخل الخزانة، والنّار تعسعس بين الأقمشة. لكنّ العناية الإلهيّة أنجت هذه العائلة وهي في قلب النار. فقد وصلت رائحة الدّخان وسط الظلمة الحالكة إلى أنوفهم، فأخذوا يتحسّسون الفرش والوسائد بأيديهم ليبحثوا عن مصدر النار، فالإضاءة مستحيلة وفي منتهى الخطورة، أخذوا يقرأون سورة الفيل، ويردّدون الآية الكريمة: «سلامٌ قولاً من ربٍّ رحيم» ويبحثون في أنحاء

الغرفة، حتى علِموا أن الحريق داخل الخزانة، فتحوها، رموا الثياب على الأرض وأخذوا يطفئونها بأقدامهم.

منذ تلك السّاعة، أصبح تطايُر الشظايا في أنحاء المنزل أمراً مألوفاً. تقول الحاجّة زينب: «كنت جالسةً على الفراش، وكانت الأرض تهتزّ من شدّة القصف، وإذا بالشظية تخترق الفراش ولم أُصَبْ بسوءٍ والحمد لله».

وتقول الصبيّة: «كانت عمّتي تصلّي، وإذا بالشظيّة تستقرّ على سجّادة الصلاة فتحرق طرفها، أكملت عمّتي صلاتها». وكان نداء «يا عمّتي» يتردّد في أنحاء البيت كلّما أحاط القصف بالمنزل، حتى الببّغاء صار يردّد صرخة «يا عمتي» فتقول له الحاجة «قل: الله أكبر» فينادي بنبرته الحادّة: «الله أكبر».

وكان شادي، الشاب الوحيد بينهنّ، لا يملك إلا أن يداري النساء، ويبلع غصّته خاصةً حين يجدهنّ وقد غلبهنّ التعب والنّعاس، لكنهّن لا يستطعن النوّم.

وكانت الحاجّتان قلقتين على حالة الشباب، وتقولان: «يا ويلي عليهم، إنهم في مواجهة الوحوش والخنازير، في مواجهة الحديد والنار، ترى، منذ كم يوم لم يتسنَّ لهم أن يتذوّقوا لا طعاماً ولا شراباً ولا نوماً ولا راحة؟ الله أكبر، اللّهم حطمّ إسرائيل وانصر الشباب بحق صاحب الزّمان عجل الله فرجه الشريف».

وكانت نداءات الشباب عند إطلاقهم الصّواريخ على العدوّ تتعالى، لتصل أصداؤها إلى مسامع أفراد هذه العائلة المحتسبة: «يا زهراء، يا مهدي، يا حيدر... الله أكبر» فكانت تختلج لنداءاتهم النفوس وتهفو

عُقبى الدّار

لها القلوب وتحنّ لها الأفئدة وتدمع العيون وخاصةً الحاجّة زينب فهي الأكبر سنّاً والأشدّ رهافة، فتقول: لهفي على الشهداء، على الشباب الذين تركوا أسِرّتهم النّاعمة وجاؤوا يتوسّدون التّراب والحجارة...!

كلّ هذه المعاناة اليوميّة ولم تتوقف هذه العائلة عن صنع الخبز والطعام للمقاومين وإمدادهم بكل ما تيسّر عندهم في الحقل. إلاّ أن المعاناة الحقيقية والخطر الحقيقيّ كان يكمن في عملية نشل الماء من البئر يومياً قبل حلول الظلام، وقد كان شادي يتولى هذه المهمّة إلاّ أنهنّ جميعاً كنّ يحطنَ به من كل الجهات، خوفاً عليه من الوقوع في البئر، تحت ضغط الاهتزاز وعدم التوازن من جرّاء القصف الذي كان يحيط بالقرية من كلّ جانب فتهتز منه الأشياء اهتزازاً عنيفاً.

بدأ العدوّ يتهاوى عسكرياً وسياسيّاً أمام ضربات المقاومة، وتصدّيها ببطولات لم يشهدها الزّمن. لذا بدأ يمطر المناطق اللبنانية بأطنان القنابل الانشطاريّة والعنقوديّة، ويحاول التقدّم البرّي والإنزالات في القرى والمناطق فيهاجمه المجاهدون ويحبطون محاولاته موقعين بجنوده الإصابات، وبآليّاته التدمير، ويجبرونه على التقهقر، فيصاب بالإحباط الشدّيد ويحاول التعويض بالقصف الهستيري العشوائي. ففي إحدى هذه المحاولات، وكانت على محور (القنطرة، عدشيت، القصَيْر)، تصدّى المقاومون للعدو وأحبطوا التقدُّم موقعين فيه إصابات كبيرة، فقام العدوّ جرّاء ذلك بدكّ قرى بنت جبيل بالصّواريخ، التي نالت منها قرية برج قلاويه النّصيب الأكبر، (أكثر من عشرين قذيفة في الدّقيقة الواحدة) ثم إن عقدة

مارون الراس ووادي الحجير (وادي الموت) بالنسبة للعدوّ، جعلته يحوّل القرى الوادعة إلى جحيم مطبق أو كما تقول الحاجّة: «يا بنتي، جهنّم وانفتح بابها على الضّيعة»، حتى أصبح لديهم خبرة بكل أنواع الأسلحة من خلال الصوت وكيفية صدوره وانفجاره، وصاروا - أي أفراد تلك العائلة العزيزة - يستنتجون أيّ نوع من الإنفجارات سوف يتبع هذا الأسلوب من القصف وكم عدد الطلقات التي سوف تنهمر عليهم في تلك اللحظة.

كلّ المنازل المحيطة بمنزلهم تهدّمت كلياً، لم يبقَ سوى منزلهم وسط باحةٍ تشبه الملعب الواسع المليء بالرّكام وبشتى الذخائر المتفجّرة، وبقطع أثاثٍ محطمٍ وبقايا ألعاب وكتب للأطفال تبكي على أيدٍ كانت تلهو بها أو تقلّبها فكأنما صار بينها وبين تلك الأيدي عهد حبٍّ ووفاء.

أما باقي بيوت الضيعة فمنها ما تهدّم ومنها ما أصيب إصابات مباشرة وبليغة حطّمت جزءاً منه وصدّعت الباقي.

تحوّلت هذه الأيام إلى جهاد كربلائيٍّ بامتياز، ما عادوا يستطيعون نشل الماء من البئر، ولا قطف الثمار أو الخضار من الحقل، ولا العناية بالحيوانات ولا حلب الحيوانات اللّبونة ولا صنع الخبز ولا تحضير الطّعام، بل ما عادوا ذاقوا طعاماً ولا شراباً، وباتوا محاصرين في غرفةٍ مهدّدة بالانهيار على رؤوسهم في الدقيقة عشرات المرّات، إن غادروها فهم مقتولون تقطيعاً، وتناثراً في الأرجاء، وإن ظلّوا داخلها فهي حتماً منهارة على رؤوسهم لتحوّلهم إلى جثثٍ مدفونةٍ

عُقبى الدّار

تحت أنقاضها. وشعرت الحاجّتان بالخوف الشديد على أولاد الأخ، فقد قامتا بتربيتهم منذ ولادتهم وحتى أينعت أزهار أعمارهم، فهل تفقدانهم في هذه الحرب العدوانية الغاشمة؟ أو على العكس، إن قتلتا هما وبقي الأولاد وحيدين في هذه الظروف القاسية، ماذا يحلّ بهم؟ بلغت الأزمة ذروتها في القصف العشوائي الرّهيب، وجنّ جنون العدوّ، فصبّ حمم آلياته العسكرية باتجاه القرى، فامتلأت قلوب جميع أفراد العائلة رعباً من أن يُقْتَلوا أو يصابوا أمام أعين بعضهم البعض، فلا يستطيع أحدهم أن يساعد الآخر.

كان الشباب يتبعون تكتيكاً يكبّد العدوّ القدر الأكبر من الخسائر البشرية والآلية، ويتراجعون إلى الخلف فيطوّقوا القرى على شكل زنارٍ محكم الطّوق، ويتقدّم العدوّ مستخدماً كل مدفعيته الثقيلة ودباباته المصفحة وذلك تحت غطاءٍ كثيفٍ من الغارات الجوّية التي كانت ترمي بصواعقها المستعرة على الآمنين، فيقوم الشباب بالالتفاف على التقدّم البرّي ويقصفونهم بالصواريخ ببطولة انقطع نظيرها، ويوقعون في صفوفهم الخسائر من قتلى وجرحى وتدمير آليات ويجبرونهم على التراجع نادبين حظهم العاثر في هذه الأرض التي حرّمت عليهم وتحوّلت بالنسبة إليهم إلى موتٍ أحمر.

ويقف العالم بأجمعه مشدوهاً أمام هذه المعادلة الغريبة...!

كما القرى التي كانت تشتعل، بأشجارها، بمبانيها، بكلّ ما فيها، كذلك بالنسبة إلى قرية (برج قلاويه) التي طوّقها المجاهدون تاركين العدوّ يتقدّم إلى مشارف الغندوريّة، والتحموا معه في

مواجهـات شرسةٍ في ليلة ليلاء أحسّت فيها تلك العائلة أنّ المنيَّة قد حانـت وعليهم الاستعداد للقاء وجه ربّهم، فاجتمعوا على حصيرٍ قشٍّ فـي ركنٍ مـن أركان الغرفة وأخـذوا يتلون شهادة المـوت، ويكرّرونها ويذكـرون الله كي يموتوا علـى الإسلام، وعلى شهـادة لا إله إلاّ الله، محمّد رسول الله، عليٌّ وليُّ الله، ويتسامحون من بعضهم ويستغفرون ربّهـم ويتوسّلون إليه، باتوا على هذه الحال، إلى طلوع الفجر والغرفة تهتـزّ بهم كأنها تصعق بالكهربـاء. وإذا بهم يسمعون بعض الأصوات في الخارج، ثم يتنحنح الشّباب ويرفعون أصواتهم بالتحيّة الإسلاميّة ويردفون سائلين: وينكم يا حجّاج؟ هل أنتم بخير؟ هل أصيب أحدكم بمكـروه؟ هبّـوا من مجلسهـم بلهفة عارمـة واستقبلوهـم (كان ظنُّ الشبـاب أنّهـم سيجدون البيت مدمّـراً كلياً) كان الشبـاب يبتسمون فـي وجوه أفـراد العائلة بسمةً تضاهي قيمتهـا كلَّ أفراح الناس، منذ أن وُجِـدَ الناس، مع أن وجوههـم كانت معفّرة، لا تُرى معالمها وكانوا فـي أشدّ حالات التأثر، فالمفاجأة بالنسبة إليهم حلوة ومؤثرة وتدعو للخشـوع أمـام إرادة الله عزَّ وجلَّ، القادر على إظهـار معجزاته لمن يشاء ومتى يشاء.

فبيـت الحاجتيـن ما زال سالمـاً تماماً بسكانه جميعـاً، بجدرانه، بكائناتـه من حيوانـات أليفة وطيور. لكنّ الخطر مـا زال قائماً بأشدّ حالاتـه. قامت العائلة ورحّبت بهم، حتى الببغاء قال: السّلام عليكم، فأخذوا يلاعبونه كأنهم سَلَوْا همومهم ونسَوْا أنهم في مواجهة إسرائيل، على الرغم من أنهم كانوا على آخر رمقٍ من الجوع والعطش.

عُقبى الدّار

اختـار الشبـاب أن يجلسـوا للحظـةٍ تحـت ظـلال شجـرة الجوز الضخمة، فطائرات الاستطلاع تئِزُّ فوق رؤوسهم، ليتبادلوا مع العائلة بعض الأخبار السّريعة، فطلبوا إليهم أن يكونوا شديدي الحذر بشكلٍ مطلق، لا تجوّل في الحقل، لا أضواء مطلقاً في اللّيل، حتى ولا بصيص عـود كبريت، لا تحرّك بتاتـاً، المكوث داخل الغرفة والدّعاء: «نحن لا نريد منكم الآن سوى الدّعاء».

أسرع شادي وانتشـل دَلْوَ ماءٍ من البئر وسقاهم، ومزجت الحاجّة مريم قليلاً من الكشكِ والماء وقدّمته إليهم مع بعض خبزٍ متبقٍّ لديها منذ أكثر من أسبوع، تناولوا منه بضع لقماتٍ، أخذت الحاجّتان تلحّان بالأسئلة عن حال الشباب في المعركة، كيف؟ وكيف؟ وكيف؟ فالقلوب معكم، أنتم أولادنا، أحبابنا، دماؤكم غالية وعزيزة جداً علينا، عسى الله أن ينصركـم ويدحر هـذا العدوّ الغاشـم، وإذا بها تلمح أحدهم يشيـح بوجهه ماسحاً دمعةً تفطّر لها قلبُها ألماً، فتوجّهت نحوه قائلةً: قـل لي يا ولدي: هل اشتقت لأهلك؟ مـا بك؟ هل تذكرت أحداً عزيزاً على قلبك؟ هل تريد شيئاً وتخجل من طلبه؟ قل يا حبيبي تكلّم، فأنتم أولادنا ونحن ملزمون بمساعدتكم ومساندتكم.

فأجابهـا: لا يا خالتي، أنا جئت إلـى المعركة بعد أن كتبت وصيّتي ونـذرت نفسـي للشهادة، أنا لا أريد إلا رضـى الله، لكن العدو شرس، والوضع صعبٌ وأنا خائفٌ جداً عليكم، فالوضع شديد الخطورة ونحن مصمّمون على المواجهة حتى آخر رمقٍ من أنفاسنا.

عندهـا نظـر أفـراد العائلـة كلٌّ في وجـه الآخر لحظـةً، وكأنهم

تفاهمـوا بالنظـرات، ثم توجّهـت الحاجّة نحو الشبـاب قائلة: «نحن نعـرف يا ولدي أن مصير هذا المنزل صـار محتوماً، سيهدمه العدوّ فـوق رؤوسنا، لم يبق في هذه السّاحة غيـره، لن يتركه الأعداء، وإذا بتْنا خارجَهُ فلن نسلَمَ من القتل، إما بالقنابل وإمّا بشظاياها. في كلتَا الحالتيَـن، نحن مقتولون. لـذا خذونا معكم يا ولـدي إلى المواجهة، نحـن لا نخشى الموت، فقد تربّينـا على قول الإمام الحسين عليه السلام: «لقد خطّ الموت على ولـد آدم مخطّ القلادة على جيد الفتاة»، ولكن مـن الأفضل لنـا أن نقتل في سـوح القتال من أن نقتـل ضحايا تحت الرّكام، أيهون عليكم أن نُردَمَ تحت أنقاض هذا المنزل الصّغير؟ ها أنتـم ترَوْنه بناءً قديمـاً يسقط تحت أوَّلِ غارة مـن غارات هذا العدوّ المتوحش...! لو رضيتم أن نرافقكم إلى الجبهة، سوف نساعدكم في نقـل السّلاح، وإسعـاف الجرحى، فنستشهد وقد قدّمنـا شيئاً فنلقى جزاءنـا عند الله عزَّ وجلَّ. التفت الشباب نحو الحاجّتين وقالوا: لا يا خالة، إن نحن اصطحبناكم معنا، نكون قد سقناكم إلى الموتِ سوقاً، أمّا إن أنتم بقيتم في منزلكم، فالله الذي حماكم وتولاّكم بعنايته منذ بدايـة الحرب وحتى اليوم، سوف يرعاكم ويحفظكم حتى يقضي الله بيننـا وبين هذا العدوّ أمـراً كان مفعولاً. ثم هـل نحن مجرمون حتى نصحبكم إلى مواجهة الدبّابات وأنتم نساء كأمّهاتنا وفتيات كأقحوان الرّبيع بمثابة أخواتنا، وشابٌّ أعزل لا يجيد استعمال السّلاح؟

أهكـذا علّمنـا الإمام الحسين عليه السلام؟ وهـل صحب زينب عليها السلام والنساء وزين العابدين عليه السلام والأطفال إلى مبارزة الأعداء؟

عُقبى الدّار

ألم يقل لزينب عليها السلام إذا أنا قتلت فاحفظي لي النّساء والأطفال؟ فليقم كلٌّ بالمسؤولية الملقاة على عاتقه، ولنتوكّل على الله سبحانه وتعالى، وإذا استشهدنا فسوف نلتقي بإذن الله في الجنّة التي وعد الله بها المتّقين والصّابرين والمجاهدين من عباده، وإذا بقينا أحياءً فلَنا بإذن الله عقبى الدّار.

نستودعكم الله يا خالة، أكثروا من الدّعاء، فالدّعاء يردّ القضاء. وانصرف الشباب يغالبون دموعاً لو أطلقوها لَجَرَتْ من المآقي لآلئ حرّى، وتركوا أفراد العائلة يشعرون كأنهم في ديارهم غرباء، والغربة تحمل بين ثناياها كلّ الحزن والأسى والدّموع والآهات. فقد أحسّوا أن القرية خاويةٌ تماماً إلاّ من رعود الطائرات التي كانت تعوي كالذئاب الجائعة، دخلوا الدار، تيمّموا فقد نضبت الآنية من الماء، وتوجّهوا للصلاة ثم تفرّقوا في الغرفة على فُرُشٍ ممدودةٍ في جوانب الغرفة. مضى النهار بطوله وهم بين صلاةٍ ودعاءٍ وقراءة آياتٍ من القرآن الكريم تحت هولِ القصف المجنون.

حلّ الظلام ولم يغيِّر شيئاً سوى زيادة حدّة الغارات، وزيادة انهيار الرّكام الذي كان يحدث ارتطامه بالأرض وتكسّره حول المنزل أصواتاً تدعو للقلق على مصير باتَ محتوماً.

استلقوا على الفُرُشِ محاولين النّوم، علّهم يذوقون طعمه ولو للحظات...

طوى الزّمن المسافات ليتعانق ثرى كربلاءَ مع ثرى عاملة، ويحتضن كلٌّ منهما الآخر، ويبثّه شكواه والآلام.

فكل يومٍ يستشهد فيه حرٌّ، أبيٌّ، حسينيٌّ هو يوم عاشورائيٌّ، وكلّ

أرضٍ يُواجهُ عليها الحقّ الباطل هي أرض كربلاء.

وكم من حسينيٍّ استشهد لنا في تلك الأيام؟ آهٍ يا أرضَ عاملةَ الوفيّة، الخصبة المعطاء...! كم أنجبتِ من باكين على الحسين، فكانت كلّ عَبرةٍ تنبت برعماً حسينياً سرعان ما يشبّ فيضحى بطلاً يحمل السَّيف بيدٍ والقرآن بيد مردّداً الوصيّة الأساس: «والله، لا أعطيكم بيدي إعطاء الذليل، ولا أقرّ إقرار العبيد».

في مقامٍ أمين

كانت ليلة هوجاء، عمياء، صمّاء، إلاّ أن الله القادر على كلّ شيء، والذي يفعل ما يريد وما يشاء، ربط على آذانِ أفراد تلك العائلة الصّابرة، فناموا نوماً عميقاً، وكأنّهم بمعزلٍ عمّا يجري حولهم. وإذا بالحاجّة مريم ترى فيما يرى النائم أن مجموعة خيلٍ بالقرب من بيتهم في ساحة القرية، يعتليها فرسان عليهم ثياب ناصعة البياض، وإذا بأحد الفرسان يتّجه نحوها ويقول لها: «لا تخافوا يا حاجّة، أنتم في أمان».

انتبهت من نومها، فوجدت الجميع نائمين على الرغم من كثافة الغارات والقصف. أدّت صلاة الصّبح بسكينة واطمئنان، ولمّا استيقظوا قصّت رؤياها عليهم.

بردت القلوب، وهدأت الخواطر، واطمأنّت النّفوس، فالهاتف واضحٌ في بيانه: «أنتم في أمان»، ترى، من هم هؤلاء الفرسان؟ الله أعلم بتفسير هذه الرؤيا، إلا أنهم حتماً من الأولياء الصّالحين...! في اليوم نفسه، استهدف محيط المنزل استهدافاً مباشراً، فكانت

عُقبى الدّار

الأحجار تطير في الهواء كالورق ثم ترتطم بالأرض وبالأشياء، طارت الكائنات، تهدّمت البيوت واشتعلت النّيران في أنحاء القرية، وقد كان هناك على رابية مجاورة فيلا واسعة يملكها أحد أبناء القرية، قد لجأ إليها الشباب بعد إصابة أحدهم، فحملوه إليها لإسعافه ريثما يتسنّى لهم نقله إلى المستشفى، طالتها إحدى القنابل، فأصابت المطبخ وتعالى اللّهب بمواجهة منزل العائلة، فاضطرّ الشباب لحمل أخيهم الجريح والخروج من ذلك البيت. كلّ هذا، وأفراد العائلة ينظرون من داخل غرفتهم إلى ما يجري، وقلوبهم تتفطّر حزناً على ما يصيب أهالي قريتهم ومجاهدي المقاومة فلا يملكون إلاّ الدعاء والتضرّع لحماية هؤلاء الناس وهذه المقاومة.

المزروعات مثقلةٌ بالثمار، والماء موجودٌ في البئر، لكن ما من أحدٍ يتمكّن من التقدّم قيدَ أنملةٍ نحو الحقل أو نحو البئر، وما عادوا شعروا لا بجوعٍ ولا بعطش، بل كانت السّاعات تمرّ وهم يترقبون ما يحدث حولهم. وبينما هم كذلك، هزّ انفجار عنيف كأنه الصاعقة أركان المنزل، وسمع دويّ الأحجار تتدحرج من كل الجهات، والشظايا تتطاير والأشياء تتحطّم. لَزِموا أماكنهم يتساءلون: أين استقرّ هذا الصاروخ؟ هل أصاب الغرفة الثانية؟ أم المطبخ؟ أم الحظيرة؟ وهل قتلت الحيوانات؟ وقالت الحاجة زينب: «أخشى أن تكون مئذنة المسجد قد قُلِعَتْ من مكانها ووقعت على سطح المنزل...! (فقد كان المسجد قريباً من بيتهم أيضاً). وتابع الصّهاينة قصفهم لقنابل الحقد على القرية كما على القرى المجاورة والمناطق اللبنانيّة كافةً

حتى الصباح. اغتنمت الحاجّة مريم لحظة تسلّلت فيها إلى الخارج، لترى عمود الكهرباء المنصوب تماماً على ركن منزلهم قد اقتلع من أساسه، وتناثر حديدُهُ إرباً إرباً وانتشر في كلّ مكان، وتطايرت جذوع الأشجار والصخور والأشياء من حوله وصارت هباءً منثوراً...!

نظرت الحاجّة إلى السّطيحة، إلى الدَار، إلى العتبة، إلى الحظيرة، إلى الجدران... وجدتها كلها سالمة تماماً، لا أثر عليها لأيّة شظيّة، وكأنها كُنِسَتْ قبل دقائق. لم تصدّق عينيها وقالت في نفسها: «أنا متأكّدة أن السّطح قد أصيب بإصابةٍ ما» فغامرت وصعدت مسرعةً إلى السّطح فوجدته سالماً، لا يوجد عليه ولا مجرّد بحصة صغيرة. دخلت إلى الغرفة، سجدت شاكرة الله على هذا الأمان، رآها الجميع، سجدوا معها شكراً لله قائلين: «لقد صدق الهاتف، نحن والحمد لله في أمان».

إلاّ أن حناجر الطّائرات ما بُحَّتْ بعد، وعواء القنابل لمّا يهدأ، وعويل الصّواريخ ما برح في أقصى ذروته، والوصف كلّ الوصف، ما عاد يعكس حقيقة الواقع، لأن الواقع الهستيري بات أعجز من أن يوصف بريشةٍ غرّى، أصبح كالأساطير أو كحكايا ألف ليلة وليلة. فكانت كلّ من العمّتين إذا وقفت للصّلاة طلبت إلى واحدة من بنات أخيها، الجلوس بقربها ومراقبتها كي لا تخطئ بعدد الرّكعات، لأن هول القصف وطول المعاناة، ووهن القوى ما عاد يمكنهما من القدرة على التركيز أثناء الصّلاة. إلاّ أن تلك المراقبة ما كانت لتنفع في إحصاء عدد الرّكعات، فالكلّ كان تحت وطأة وأزيز الآلة الأميركية

عُقبى الدّار

الصّهيونية، لا يملك إلاّ أن يطير أو يقفز أو على الأقلّ يكوّم جسده على بعضه مخبّئاً رأسه إلى الأسفل وكأنه لا يريد أن يرى الهولَ النازل به لا محالة.

وكان العدوّ في تلك الأيام يثأر لهزيمته النّكراء في التقدّم البرّي، فينتقم بارتكاب المجازر بالأطفال والنساء والأهالي، فارتكب مجزرتين في بلدة «الغازيّة» ومجزرة في بلدة «الغسّانية» ومجزرة في «حولا»، عدا عن قصفه لكلّ المناطق اللبنانية من أقصى الجنوب إلى أقصى البقاع بغارات متواصلة.

في خضمِّ هذا الجنون العسكري، والجنون السياسيّ الذي لفّ العالم بأسره، بالإضافة إلى الجنون الإعلاميّ حيث راح كلٌّ يغني على ليلاه ويحلّل على هواه، كان أبطالنا في شباب المقاومة الإسلامية منكبّين على عبادتهم المقدّسة بكل جوارحهم، ألا وهي الجهاد في سبيل الله، لا يخافون في الله لومة لائم. فسلامٌ عليكم يا خرّيجي المدرسة الكربلائية بأوسمةٍ من ذهب، موشاةٍ بالشقيق الأحمر القاني، الرّيان من نجيع شراييِنكم، الباعثِ الصحوَ في شراييِنِ الأممِ الغافيةِ على وسائد الذل والخنوع والجبن والانكسار.

أمَّا عائلتنا الصابرة فالتزم أفرادها أماكنهم داخل الغرفة التي شهدت صمودهم منذ بداية الحرب، وإذا بأحد المقاومين ينادي من خارج الدّار: «السّلام عليكم يا خالتي الحاجّة»، أسرعت الحاجّة مريم وابن أخيها يسبقها باتجاه الباب، فإذا بالشابّ المقاوم يعرج في مشيته والدماء تسيل من قدمه، أقبلت عليه بلهفة وتوسّلت إليه أن

يدعها تضمّد له جرحه ويستلقي قليلاً على فراش ليستريح، لكنه أبى بشدّة وقال: «إن لم أعُدْ إلى رفاقي، سيظنّون أننا استشهدنا جميعاً (أنا وأنتم) وسيضطرون للّحاق بي، والوضع لا يسمح لنا بذلك، فكلّ الشباب منهمكون بمهمّاتهم ولولا إصابتي ما سنحت لي الفرصة لزيارتكم والاطمئنان عليكم، فكرّرت الحاجّة رجاءها أن يُرِيَها جرحه علّها تتمكّن من مساعدته في تضميده لكنّه رفض، فناولته رِباطاً وقالت: كيف أتيتَ يا ولدي وأنت على هذه الحال؟

فقال: نحن قومٌ لا يضيع معنا الجميل، ولا ننكر معروف أو عهد من سدَّ رمقنا بلقمة خبزٍ أو شربة ماء. فكيف نترككم في ظلّ هذا القصف دون أن نعرف عنكم شيئاً أو نطمئن على سلامتكم؟ ثم ودّعهم وانصرف ولم ينسَ أن يذكّرهم بعدم إصدار أيّ ضوءٍ من البيت ليلاً فيمّمت الحاجّة مريم وجهها شطر السّماء ونذرت، إن شفيَ هذا الشاب من جرحه فستصوم ثلاثة أيام شكراً لله تعالى. وتبع ذاك اليوم ليلةٌ مضيئةٌ بلمعان القنابل والقذائف والصّواريخ، فكانت الفتاتان تقولان لعمّتيهما إنهم يوصوننا دائماً بعدم إضاءة أية شمعة أثناء اللّيل، وهل نحن بحاجة إلى الضّوء؟ ألا تكفينا أضواء الصّواريخ؟ فكانت العمتّان تدعوهما إلى الصّبر والتجلّد وذكر الله والدّعاء. وما إن يلمع ضوء الصّاروخ على جدران الغرفة حتى تنطلق من أعماق الجميع صرخة «الله أكبر» قبل انفجاره في محيط المنزل، حتى تهدّم كلّ ما حولهم وأصبح منزلهم في فلاةٍ من الأرض، كالنخلة في الصحراء. ثم أتبع تلك الليلة يومٌ أحمر دَكّت فيه مدفعية العدوّ

عُقبى الدّار

الثقيلة، وتحديداً عند الواحدة ظهراً كل القرى المجاورة وخصّت قرية (برج قلاويه) ومحيطها بمئات القذائف من مختلف الأوزان والأنواع. وهكذا وفي كلّ مرّة كانت المقاومة تحوّل دبّابات العدوّ إلى توابيت، كان العدوّ يثأر بقصفٍ هستيريٍّ أعمى. وبعد أن تبنّى مجلس الأمن القرار ١٧٠١ وطلب من لبنان وإسرائيل الموافقة عليه، حاول الكيان الصهيوني استعادة القليل من ماء وجهه الذي أريق في هذه الحرب، فقام بإنزال مظلّي كبير على التخوم الشمالية لنهر الليطاني، إلا أن المقاومة تمكنت من إسقاط مروحيّة وقتل خمسة عسكريين كانوا على متنها. كذلك حاول العدوّ التقدّم البرّي باتجاه اللّيطاني حيث شهدت قرى الجنوب الكثير من الملاحم البطولية، كملحمة الغندورية وملحمة وادي الحجير والقليعة. ثم حاولوا التسلّل إلى محلة صف الهوا بواسطة دبّابتين مدرّعتين إلاّ أن المقاومين رصدوها ودمّروها بالصّواريخ.

وهكذا أمضت العائلة الصّامدة الأيام الأخيرة من العدوان، حيث كان طعامها عدّ الصّواريخ وشرابها التضرع إلى اللّه كي ينقذهم وينقذ بلدهم وينقذ المقاومة من هذه المحنة. وقد ظلّت قريتهم محوراً أساسياً للاعتداءات الصهيونية وقلعةً مقدّسة لاستبسال المقاومين المجاهدين. ففي اليوم الأخير، حاولت المروحيّات الإسرائيلية إنقاذ جنودها المنتشرين الفارّين في وادي الحجير فأفشلت مهمتها المقاومة، عندئذٍ عمدت إلى إدخال المدفعية وقصف بلدات برج قلاويه وقلاويه والغندورية لمنع تقدّم رجال المقاومة نحو الجنود الفارّين.

وأشرقـت شمسـ الثالث عشر من آب على ما تبقى من حجارة في بـرج قلاويـه، كما في كلّ القـرى الأبيّة، لتشهد علـى مذابح ارتكبتها أبالسة الأرض دون أن يرفّ لهم جفن.

وتوجّهـت الحاجّة مريم نحـو البئر، وحملت الدّلـو بيدها تريد أن تنتشل قليلاً مـن الماء، فأولاد الأخ، حبّات القلوب، قد غارت عيونهم وخـارت قواهم وراحوا يفتشـون في لَكَنٍ الخبز عن لقمـةٍ يقتسمونها لسَدّ رمقهم. وكلّ ما في البيت أصابه الجوع والعطش؛ فالببّغاء انزوى فـي القفص مستنداً إلى قضبانه يفتح عيناً ويغمض الأخرى، والدّيك مـا قويت حنجرته علـى الصيّاح، والقطط هامـت على وجهها تبحث عن صيدٍ في البراري.

تبع شادي عمّته وأخذ الدلو من يدها، وأدلاه في البئر وهي من خلفه تحوطـه بيديها، انتشل الماء وسحب الحبل وإذا بالطيران الصّهيوني يغير علـى القرية كالصواعق، ملقياً القنابـل العنقودية في البساتين والوديان وخلف التلال. بلمـح البصر، جذبته عمته من قميصه بكلتا يديهـا صارخـة، سحب الدّلو ورمـاه أرضاً وأمسك بيـد عمّته ودخلا المنـزل وهما يتمتمـان: «حسبنا الله ونعم الوكيـل، ولنا في عطاشى كربلاء أسوة حسنة».

أمـا ليلة إعـلان الانسحاب، الليلـة الأخيرة، فعنوانهـا على لسان الحاجّـة «لا تسأليـني يا ابنتي عن آخر ليلة مـن العدوان»، فقد صبّت إسرائيل جـام حممها على كلّ الصامدين مـن جمهور المقاومة، في الضاحيـة والجنوب والبقاع والشمال. ونالـت القرى المتاخمة لوادي

عُقبى الدّار

الحجيـر، وادي المـوت والهزيمـة النكـراء والفشل الذريـع بالنسبة للصّهاينـة، القدر المريع من تلك الحمم. فقد طال قرية برج قلاويه حوالي مئتان وخمسون قذيفة في الدقيقة الواحدة.

وتكرّر الحاجّة: «لا تسأليني يا ابنتي عن آخر ليلة من العدوان» فقد متنا ثم عشنا فيها ألف مرّة، والصّهاينة أنفسهم لن يصدّقوا إن قلنا لهم أننا كنا موجودين في هذا المنزل هنا، ولم نصب بأذى.

الحصاد

صارت الشظايا تتطاير على السّطح، على الجدران، على النوافذ، في جوانب الغرف، في المطبخ، في الدار، على الفُرُش وفي كلّ مكان. لكن والحمد لله لم يُصَبْ أحدٌ منَّا أبداً.

تلـك اللّيلة لم تكن ليلة، بل كانت الحرب بطولها، بلياليها وأيامها. احتضنّـا أولاد أخينـا وقبعنا فـي زاوية من زوايا الغرفـة ننتظر بزوغ الفجر، لعلّ الفجر يعقبه الفرج!

وأخيراً بزغ الفجر، وحمل معه النّصر.

نَصْرَكم يا أحبّتنا، يا أبناءنا، يا أبطالنا، يا مقاومينا!

يا من ترقص الأفلاك لأعينكم

يا من تجلببتم بشعاع العفّة والعزّة والإباء والشموخ!

لأجلكم أقسَمَ ثرى وطني قسماً ستحفظه الأجيال!

قسماً بدمائكم الزكيّة، قسماً بعيونكم السَّنِيَّة

قسماً بوجوهكم البهيّة، قسماً بجباهكم العَلِيَّة

لن يَغلِبَ حديدهم والنّار! فهم دوماً خائبون وأنتم أبداً غالبون

ها هي الملائكة قد تجلّت بوجه الشّمس التي غزلت خيوط الانتصار على خدّ الصّباح ورتّلت:

سلامٌ قولاً من ربٍ رحيم...

سلامٌ عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدّار

فأحرقت قلب المعتدي الجبان الذي فرّ خائباً

وحاك القمر وسام العزّ على جباه الأباة، وصنعت البلابل والحساسين أكاليل الغار على مثاوي الشهداء، وضمّدت سنابل القمح آلام الجرحى والمعوّقين، وأذّن ببّغاء الحاجّتين المؤمنتين في برج قلاويه:

الله أكبر الله يهدّك يا إسرائيل

وصاح الدّيك: ألا لعنة الله على الظالمين ستفنى إسرائيل فَهُمّ الخائبون الخائبون، وأنتم السابقون السابقون... الغالبون الغالبون...

بدموع الأمهات، بآهات الآباء، بنحيب الأطفال، ببكاء الأخوات، بحنين الأحبّة... ستبقوْنَ غالبين. قد أقسَمَ ربي بكتابه: ألا أنتم الغالبون.

وبرزت وجوه أفراد العائلة الصّامدة إلى النّور، وجوهٌ أكْلَحَها الخوف والضّعف والسّهر، حتى لكأنّهم قائمون من تحت الأنقاض.

أوّل ما قام به شادي هو سَحْبُ الماء من البئر، وأوّل ما قامت به الحاجّتان هو سَقْي الحيوانات والطّيور وإطعامها.

أما الفتاتان فقد حملتا قفص الببّغاء - الذي نفض ريشه وقام ينقر

عُقبى الدّار

القضبـان ـ وعلقتاه في الخارج ليستقبل يـوم النّصر. سارت الحاجّة مريم نحو ساحة الضَّيعة لتستلطع ما تبقّى من حجارةٍ أو بقايا بيوت، فالتقت شابـاً صاعداً من جهة وادي الحجيـر، مقبلاً يستطلع القرى صبـاح الاثنين في الرابع عشر مـن آب ٢٠٠٦. هي لم تتفاجأ به، فهو مـن الشبـاب، أبناء القرى، المدافعيـن عنها، الدّاحريـن العدوّ. أما هو، فقـد صعقته المفاجأة! امـرأة في السّتينيات مـن العمر، تمشي فـي ساحة برج قلاويه سالمة! ألقت عليـه التّحيّة وباركت له بالنّصر وحمـدت اللّه على سلامته، عندها أفاق من دهشته وسألها: أين كنتِ يا حاجّة؟ أجابت: نحن هنا يا ولدي، في ذاك البيت الباقي هناك.

فقال: آه إذن أنتم من أطعمنا خبزاً و....

فقاطعتـه وقالـت: أتقـول مـن أطعمنا خبـزاً ولا أقول مـن قدّموا أرواحهم وأجسادهم قرابين، ودحروا عدوّنا؟ نحن ما صنعنا شيئاً يا ولدي، أنتم من صنع نصرنا ورفع رؤوسنا.

وعادت قوافـل النّازحين ساجدةً مقبِّلةً ذرّات التراب، جابلةً إياها بدموع الشكر والعرفان. منهـم من نصب الخيام، ومنهم من افترش الأرض والتحف السّماء حاضناً نجومهـا بالأجفان، مخاطباً نسيمها بخطـاب الحـبّ والعشـق اللاّمتناهي. ومـرّ الشباب حاملين بيارق النّصـر، ليسلّموا على العائلة الصّامدة، فرأت الحاجّتان وجوهاً يشعّ منها نورٌ لا يشبهه نورٌ على الإطلاق إلا نور الكعبة ليلة الإحرام...

وراحت عيون الأهالي وقلوبهم وهتافاتهم تطوف حول عيون الشباب علّها تردّ التحية بأحسن منها.

ولكـن هيهـات، أنـى لنا أن نتقـن تحاياهـم؟ أو نـردّ جميلهم؟ أو نبادلهم إحسانهم بإحسان مثله؟

فإحسانهم لا يُطال ولا يُقاس ولا يُعادل...

ومـرّ المقاوم الجريح بالبيت الصامـد في طريق العودة، لوّح بيده باسماً وقال: «طلعت سليمة يا خالتي الحاجّة».

فزغـردت الحاجّة وقالت: «الحمد لله الـذي تقبّل نذري»، وعقدت نيـة الصّوم. ونادى ملاكٌ مرَّ بأثيرهم أن: سـلامٌ عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار.

وطافـت الحاجّة مريم حول البيت، وسَعَتْ سَبْعَ أشواطٍ بين الحقل والدّالية وفاءً ولهفةً وحبّاً واشتياقاً...

وحجّت إلى الصّخرة السّمراء إياها، وأسندت ظهرها إليها وقالت: «إيه يا صخرتي السّمـراء، غداً، يوم يظهر صاحب الزمان عجل الله فرجه الشريف، انطقي وقولـي له: «مُـرّ بسلام، فما اختبأ خلفي يومـاً إلا المؤمنون الصّابرون المحتسبون».

وبعـد، ما نضبـت قنابل إسرائيل، ولا جفّ سيـلُ دمائنا، ولا سَكَت أنينـنـا، ولا مُسِحَتْ دموعنا... فأثناء كتابتـي لهذه السّطور، انفجرت إحـدى قنابل العدوّ اللئيم بابـن أربع سنوات بينما كان يلهو تحت نبتةٍ مباركـةٍ في بساتين برج قلاويه فقطعته إربـاً إرباً، إلا أن دماء رضيع الحسيـن عليه السلام التي تلقتها سمـاء كربلاء، عـادت وأمطرتها عيوناً تروي تراب الأرض فتنبت براعم كعبد الله لا تفنيها كلّ قنابل الأعداء وقذائفهم وصواريخهم.

عُقبى الدّار

وبعـد، فقد وجدنـا ما وعد ربنا حقـاً، فالنصر نصـرٌ إلهي بحق، والعناية عنايةٌ إلهيـةٌ بحقّ، فإن أول مَطَرَةٍ أمْطَرَتْها سماءُ جبل عامل – وأيضـاً أثناء كتابتي لهذه السّطور– كانت حبات بَرَدٍ ضخمة تحاكي حجـارةً مـن سجِّيلٍ، ففجّرت أكثـر من ثلاثمئة قذيفـة عنقوديّة كان قـد أعدّها لنا العدوّ، ليخسـأ أصحاب الفيل ويوقِنَ المؤمنون بأنّ لهم عقبى الدار.

عُقبى الدّار